موقف مشرف من الجبرتي المؤرخ من الدعوة السلفية

الدكتور عبد المولى البشير

الجبرتي مؤرخ شهير عاصر قدوم الحملة الفرنسية على مصر، ثم عاصر تولي محمد علي الحكم في مصر، وقد أرخ لتلك الفترة وما قبلها في تاريخه العجاب: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار».
وقد صنفه نفر من دعاة العلمانية على أنه من رواد ما يسمونه بالفكر التنويري؛ حتى إن كبيرهم لويس عوض في كتابه: «تاريخ الفكر المصري الحديث» زعم أن الجبرتي أحد واضعي الفكر المصري الحديث!!

ولكن الحقيقة أن من يتتبع تعليقات الجبرتي على الحوادث التي يرويها سيرى أن الجبرتي ينطلق في آرائه ومواقفه من منطلق إسلامي بحت: أساسه الرجوع إلى أحكام الشريعة الغراء، بل إنك ستلاحظ في تعليقاته نزعة سلفية واضحة، وإنكارًا شديدًا للبدع والمحدثات المخالفة لمنهج السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وإليك بعض النصوص الدالة على ذلك:

١- أنه يقرر في مقدمة كتابه: وجوب الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله في الحكم بين الناس حيث يقول: «فالواجب على الملك وعلى ولاة الأمور أن لا يقطع في باب العدل إلا بالكتاب والسنة ؛ لأنه يتصرف في ملك الله وعباد الله بشريعة نبيه ورسوله نيابة عن تلك الحضرة ومستخلفاً عن ذلك الجناب المقدس، ولا يأمن من سطوات ربه وقهره فيما يخالف أمره؛ فينبغي أن يحترز عن الجور والمخالفة والظلم والجهل...» إلخ.

٢- ينكر الجبرتي من خلال تعليقه على بعض الأحداث ما انطوت عليه الصوفية من البدع المخالفة للاعتقاد السلفي السليم، وذلك في مواطن عدة:

- منها: ما ذكره في حوادث سنة (١١٧٠هـ) في ترجمته لأحد المشايخ،

وهو الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام؛ فيذكر أنه عقب وفاته اجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبرًا، وعملوا له مقصورة ومقامًا، وصيروه مزارًا عظيمًا يقصد للزيارة ويختلط به الرجال بالنساء، ويقول: «ثم إنهم ابتدعوا له موسمًا وعيدًا في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خيامًا كثيرة..» إلى أن يقول: «..فيطأون القبور، ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات، ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلوطون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون الطبول والزمور ليلًا ونهارًا..».

- وفي حوادث شعبان (١٢١٣هـ) يتحدث عن نشأة المولد الحسيني، وكيف أن الذي ابتدعه رجل أصيب بمرض فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله، فحصلت له بعض إفاقة؛ فابتدأ به.

وقد ذكر الجبرتي أنواعًا من البدع التي كانوا يأتونها في أثناء الاحتفال بذلك المولد، ثم قال: «هذا مع ما ينضم إلى ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلى حسان الغلمان... ورمي قشور اللب والمكسرات والمأكولات في المسجد... فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقًا بالأسواق المتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... ويتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها... وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت ليلته؛ فتجد أحدهم يجتهد بقوة سعيه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم، ويصرفها في وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة... ثم يقطع ليلته تلك سهرانًا، ويصبح دائخًا كسلانًا، ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد، واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين ولم يزدد الناذر لذلك إلا مرضًا ومقتًا..» إلخ.

٣- ينبه الجبرتي في تاريخه إلى أن الفرنسيين قد شجعوا الناس على إقامة الموالد؛ لما رأوا في ذلك من الخروج عن الشريعة، وصرف الناس عن جهادهم ومقاومتهم.

ومن ذلك: ما ذكره في حوادث عام (١٢١٤هـ) حيث ذكر أنه في أوائل شهر ربيع الثاني من ذلك العام ابتدأ الفرنسيون في عمل مولد الحسين، وأنهم قهروا الناس على المشاركة في الاحتفال به، وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر وإيقاد القناديل عشر ليال متوالية؛ كما يقول في حوادث ربيع الأول سنة (١٢١٣هـ): «وفيه سأل صارى عسكر عن المولد النبوي

السلفية

ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال: لا بد من ذلك، وأعطى له ثلثمائة ريال فرانسة معاونة، وأمر بتعلق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم...».

كما ذكر الجبرتي في حوادث ربيع الآخر (١٢١٤هـ): أنه كان من جملة الموالد التي كانت تقام بالقاهرة قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر مولد لواحد من البُله يدعى علي البكري، وأنه لما قدم الفرنسيون تشاغل عنه الناس وأهمل شأنه، فلما استقر الأمر للفرنسيين أعادوا الاحتفال بمولد ذلك الولي المزعوم، وأمروا الناس بإيقاد قناديل بالأزقة، ويعلق الجبرتي على ذلك: بأن الفرنساوية إنما أمروا بإعادة تلك الموالد لما رأوا فيها «من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء، واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات».

٤- ومن ذلك تعاطف الجبرتي مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ السلفية بل وتأييده لعقيدته ومنهجه.

ومن ذلك: أنه يذكر في حوادث سنة (١٢١٨هـ) أن الناس قد لغطوا في خبر الوهابي واختلفوا فيه، ثم يذكر أن الوهابي أرسل إلى شيخ الركب المغربي كتابًا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته، وقد نشر الجبرتي نص ذلك الكتاب كاملًا، وفيه بيان ما تقوم عليه تلك الدعوة من الرجوع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنكار مظاهر الشرك من التوجه الى الموتى وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، والتقرب إليهم بالنذور وذبح القربان، وأن ما يحدث من تعظيم قبور الأولياء وبناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادًا كل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بها النبي ﷺ أمته وحذر منها، وأنه يجب هدم القباب المبنية على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ، ثم قال الجبرتي تعليقًا على هذا الكتاب: «**أقول: إن كان كذلك، فهذا ما ندين الله به نحن أيضًا، وهو خلاصة لباب التوحيد، وما علينا من المارقين والمتعصبين، وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان، والحافظ المقريزي في تجريد التوحيد...**».

٥- وفي سياق تأريخه للحروب التي شنها محمد علي باشا على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نجد تعاطفا واضحًا من الجبرتي مع الدعوة السلفية، وإنكارًا شديدًا لما كان عليه حال قادة محمد علي وجنوده من الفسق والبعد عن الدين:

ففي حوادث شهر رمضان سنة

(١٢٢٩هـ) يذكر عن بعض أولئك الجند: أنهم تجمعوا خارج باب الفتوح استعدادًا للسفر إلى الحجاز، وأنهم كانوا: «يأكلون ويشربون جهارًا في نهار رمضان... ويجلسون على المساطب وبأيديهم الأقصاب والشبكات التي يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء... وأشنع من ذلك أنه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطي والبغايا.... وانضم إليهن بياع البوظة والعرقي والحشاشون والغوازي والرقاصون وأمثال ذلك.... فكانوا جمعًا عظيمًا يأكلون الحشيش ويشربون المكسرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارًا في نهار رمضان ولياليه مختلطين مع العساكر، كأنما سقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب».

وفي حوادث المحرم (١٢٢٧هـ) يتحدث عن عودة عساكر محمد علي من بلاد الحجاز بعد هزيمتهم وهم في أسوأ حال من الجوع وكآبة المنظر، وينقل عن بعض أكابر القادة أنه قال له: «أين لنا بالنصر، وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبًا، وصحبتنا صناديق المسكرات، ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم، ولا خاطرهم شعائر الدين، والقوم -أي السلفيون- إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد، بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف... وعسكرنا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته».

ومما سبق يتبين أن الجبرتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سلفي يكتب عن الدعوة السلفية كتابة المؤمن بها، المدافع عنها؛ إنه يكتب عن هذه الدعوة الإصلاحية كتابة المؤرخ المنصف ولا يقلل هذا كلمات نابية تخللت بعض نصوصه، نرى عدم صحة نسبتها إليه، ولذلك نقول مع القائلين بأنه كان يتخذ منها (تقية) فقد صرح في مواضع كثيرة برأيه تصريحًا لا مواربة فيه.

وما كتبه هذا المؤرخ المنصف وصرح به في أحرج أوقات تلك الدعوة السلفية وأشدها بلاء عليها في عنفوان سيطرة أعدائها وانتصارهم وقوتهم يعد موقفًا رائعًا لهذا المؤرخ؛ يرتفع به إلى مصاف المجاهدين.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.

